متى يطلع الفجر يا رفيق ؟

متى يطلع الفجر يا رفيق؟

قصة الثورة الروسية

بقلم جان بول أوليفيه
ترجمة جورج طرابيشي

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٧٠

تشرين الاول = تشرين الثاني

بهدف المقابلة بين الحوادث التي جرت في الشرق وفي الغرب في آن واحد ، اتبعت في سردها التقويم الغريغوري المتبع في الغرب ، والمتقدم بثلاثة عشر يوماً على تقويم روسيا القديمة . وقد جاء قرار الجمهوريـــة الاشتراكية السوفياتية الفتية بتبني النظام الغربي اعتباراً من كانون الثاني ١٩١٨ ليجعل من ٧ تشرين الثاني بدلاً من ٢٥ تشرين الأول يوم الاحتفال الرسمي بذكرى الثورة البلشفية . لكن اليوم العظيم الذي هز العالم سيبقى في ميثولوجيا التاريخ يوم **ثورة اكتوبر** .

(١)

فجر السوفييتات

(١)

في الساعات الاولى من الصباح ، في باريس المنكمشة على نفسها بفعل رياح الخريف الباردة الاولى ، تعالى من زوايا الشوارع قرع طبول غير منتظر . ذلك ان الحكومة قد قررت ، بعد أن أمسى شتاء الحرب الرابع على الابواب ، أن تستبدل الصافرات التي يسهل على الطائرات العدوة سماع زئيرها بطبول مكسوة باللباد ، مخنوقة الصوت . انه نبأ جديد من انباء الحرب التي تترى يومياً منذ ثلاثة اعوام وأربعة أشهر ، والتي تبدو وكأن لا هدف لها غير ان تمنح اوروبا وهمَ الاستمرار في الحياة على ارض تدور بلا تاريخ .

بيد ان القارىء لم يكن يعير اهتماماً من كل الصحافة اليومية إلا للبلاغات الخاصة بالحرب الضروس . فهو يفكر اليوم في حماية نفسه من أخطار الغارات الجوية ، كما كان يتفكر بالأمس بتنفيذ حكم الاعدام في ماتا – هاري او يتأمل معجباً في ساحة الأنفاليد « شارل العجوز » ، الطائرة المظفرة التي أسقط غينيمير من على متنها تسع عشرة طائرة ألمانية .

في ذلك اليوم ، ٧ تشرين ١٩١٧ ، في ساعة تجربة الطبول ، كان وليم مارتان ، مدير المراسيم في وزارة الخارجية الفرنسية ، ينتظر وصول دبلوماسيين حليفين جديدين . وفي الساعة الثامنة والنصف إلا خمس دقائق استقبل في محطة الشمال باسيل ماكلاكوف ، سفير روسيا الجديد في باريس المسمى

من قبل حكومة ألكسندر كيرنسكي المؤقتة . وبعد بضع دقائق ، اي في تمام التاسعة ، كان عليه أن يستقبل في محطة اورسي الكونت بونان – لونغار ، سفير ايطاليا الجديد .

لم يكن باسيل ماكلاكوف ، الطويل القامة ، الضخم الجثة ، المنحني الظهر ، الملتحي الوجه ، بسفير محترف . فهو محام مشهور ، وعلامة جهبذ ، ونائب في الدوما منذ ثلاث دورات تشريعية ، وعضو في الحزب الدستوري – الديمقراطي المتطلع الى نظام نيابي حقيقي ، وقد اجتاز بحار الشمال الباردة ليدور حول برميل البارود الذي كانته اوروبا قاصداً باريس عن طريق لندن . ولقد داعب بأصابعه عدة مرات طوال هذه الرحلة الطويلة التي دامت خمسة عشر يوماً شيئين سريين في حقيبته اليدوية : مطرقة وقارورة سم استخدمتا في عملية اغتيال تاريخية ارتكبت مؤخراً .

وقد ادلى الممثل الجديد للجمهورية الروسية الفتية بتصريحه الاول الى صحيفة « اكسيلسيور » :

– ان الوضع الداخلي في روسيا لا يدعو الى القلق الى الحد الذي يمكن تخيله عن بعد . وأنا أقدر ان الحكومة المؤقتة ستتغلب بسرعة على المتطرفين .

وفي صباح اليوم التالي ، في وزارة الخارجية ، وضع لوي بارتو على نحو مباغت حداً لمستقبل ماكلاكوف الدبلوماسي :

– لقد اضطررت إلى إلغاء مقابلتكم مع الرئيس ريمون بوانكاريه . لقد اطاح لينين بكيرنسكي هذه الليلة . ان خطاب اعتمادكم لم يعد مقبولاً .

بلبل النبأ السفير . فروسيا التي يحب ، روسيا وطنه ، أضحت في أيدي البلاشفة . ومصير أهله غامض ، او لعله يُقرر في هذه اللحظة بالذات . لقد ترك ماكلاكوف شقيقين في موسكو . ألكسيس ، وهو أخصائي في العيون مشهور ، ورجل بهي الطلعة مشغوف بالفتوحات الغرامية اكثر منه بالأمجاد السياسية ، وحظه كبير في الإفلات من الانتقام الأحمر . لكن الاخ

الاكبر ، نيقولا ماكلاكوف ، النصير العنيد للنظام الملكي المطلق ، ووزير داخلية نيقولا الثاني سابقاً ، مسجون منذ ستة أشهر بانتظار محاكمة يريد لها سادة البلاد الجدد ان تكون مضرب الأمثال .

وايطاليا ، بعد روسيا ، هي ثاني ما يثير قلق الحلفاء الكبير . والكونت بونان – كونغار يعرف وضع بلاده معرفة افضل من معرفة زميله الشرقي . ووضعها هو الآخر دراماتيكي . ففيكتور – عمانوئيل يحاول ان يحل أزمة وزارية أثارتها كوارث فريول وكابوريتو . والملكة هيلين تخفف من قسوة مصير يتامى الهزيمة مقدمة لهم شقق الأمراء الاطفال في قصر الكيرينال .

وفي روما يعمل بول بانلوفيه ، رئيس الوزراء الفرنسي ، على إرساء أسس مؤتمر فرنسي – انكليزي – ايطالي بهدف توزيع قوات التحالف الجديد . ولم يكن في الافق الايطالي الكالح سوى بصيص واحد يطمئن بانلوفيه ، بصيص اضاءته يد صحفي اشتراكي طليعي شاب ، بينيتو موسوليني عندما صدرت صحيفته « شعب ايطاليا » وهي تحمل العنوان البارز التالي : « ويل لمن يضيع الوقت في مناقشات باطلة في اللحظة التي ينادي فيها الوطن ابناءه جميعاً الى صراع حياة أو موت » .

ان الاشتراكية ، التي تفتح الباب امام الروح الانهزامية في ايام الحرب العصيبة تلك وتزرع الشك في قلوب الجنود في الخنادق وتجعل الشعوب تحلم بالخبز والسلم والحرية ، لن تزيد الوضع في مملكة ايطاليا طيناً على بلة .

لكن استيلاء البلاشفة على السلطة في روسيا يوجد مبرراً للتخوف من صلح منفرد تكون نتيجته القذف بفرق ألمانية جديدة الى الجبهات الغربية .

وها هوذا النائب جورج كليمنصو يصرح علناً اثناء جولة له على القوات المسلحة بثقة عارمة وقد اثملته أنباء انتصار جديد على نهر الموز :

– ان حكومة البلاشفة لن تدوم ثلاثة ايام ...

في الوقت الذي تدين فيه السويد جنون البشر بإلغائها توزيع جوائز نوبل ،

والذي تؤكد فيه سويسرا حيادها بإجرائها انتخابات تشريعية ، تعرف اميركا بدورها استعدادات الحرب . فبلاد العم سام ، الثرية اليوم كما لم تكن قط بفضل شتى انواع شحناتها الى الحلفاء ، لا يمكن أن تغفر للألمان شلهم تجارتها بحرب غواصات لا تعرف الرحمة او الشفقة . ومنذ ٦ نيسان ١٩١٧ دفع الرئيس ويلسون بالآلة الحربية الاميركية العظيمة الى ميدان القتال في اوروبا . وفي ذلك اليوم ، ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ ، اختارت نيويورك عمدة ديمقراطياً لها ، هيلان ، واقامت له استعراضاً رائعاً في برودواي ، في الوقت الذي حظرت فيه الحكومة الاتحادية بيع الكحول . وبذلك يكون الاميركان قد دعموا المجهود الحربي ضد أواخر المسالمين الذين وجد احد زعمائهم مربوطاً الى شجرة في غابة قريبة من سنسيناتي .

اما انكلترا فأعباء الحرب تسحق اقتصادها سحقاً . ولويد جورج يدير دفة الحكم منذ عام من الزمن ، خلفاً لأسكيث . وقد انتخبت لندن ، مثل نيويورك ، عمدتها الجديد في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ . لكن الموكب الذي حمل المنتخب عبر المدينة كان موسوماً بميسم العصر : مصفحتان تسبقانه ، وتتبعهما دبابة تمتطيها عاملات مصنع للذخيرة ، وشاحنات تحمل بقايا طائرتين عدوتين تم إسقاطهما ... وقد ادى التقنين وانخفاض القوة الشرائية الى انخفاض معنويات الانكليز . فكل أسرة لا يحق لها سوى ستة عيدان من الكبريت في اليوم . وقد عهد الى وزير في الثالثة والاربعين من العمر ومسؤول عن الذخيرة بتلافي مظاهر الضعف في حسّ المواطنين بواجباتهم المدنية : ونستون تشرشل . وها هوذا يحطم نذر الاضرابات باقتراحه إرسال المحرضين عليها الى الخطوط الأمامية . ثم انه يشرف بنفسه على كل شيء . ان التعب لا يعرف اليه سبيلاً ، وفي وسع المرء ان يراه صباحاً في الجبهة الفرنسية في جولة تفتيشية ومساءً في مكتبه اللندنيّ . وعندما كان يقترب من المخافر الامامية بصحبة قائد القوات الانكليزية دوكلاس هيغ ، كانت بضعة كيلومترات فقط تفصله في منطقة الإيبر عن عريف ألماني قضى فترة

الحرب كلها في شمال شرقي فرنسا : ادولف هتلر .

كان الالمان ما يزالون يحتلون بلجيكا وشمال فرنسا وبولونيا وبلدان البلطيق وجزءاً من روسيا البيضاء . ولكن حصار « التفاهم » يفرض على القوى المعادية اقتصاداً انحسارياً . وفي بلجيكا كان المحتلون يمزقون الفرش والوسائد ليستولوا على الصوف . وقد اندلعت فتن وتظاهرات عصيان على متن بعض الوحدات الالمانية الراسية في وهلمشافن ، في خليج جاد ، حيث ألقى البحارة بالأميرال شميدت الى البحر .

وفي بافاريا ، في معسكر الأسرى في انغولشتاد ، المعقل رقم ٩ ، حيث سجن الكابتن شارل ديغول الذي اصيب بجرح بالغ في ٢ آذار ١٩١٦ ، نجح ضابط روسي شاب في الثالثة والعشرين من العمر ، في ثالث محاولة له ، في تنفيذ عملية هرب كانت تعتبر بحكم المستحيلة ، بعد ان تنبأ بنجاح الثورة السوفياتية . فقد قال ميشيل توخاتشيفسكي ، الضابط في الحرس الامبراطوري ، المثقف ، المهذب ، النبيل المحتد ، قبل ان يهزأ بالحراس الألمان :

— سوف ننفض روسيا كما لو انها سجادة ، ثم ننفض العالم .

فرد عليه رفاقه في الأسر :

— ولكنك ستعدم رمياً بالرصاص عند وصولك لدى السوفياتيين .

— أُعدم رمياً بالرصاص ؟ أتنطقون بالجد ؟ لن أبلغ الخامسة والعشرين حتى اكون قد اصبحت جنرالاً ...

(٢)

كان السفير باسيل ماكلاكوف يجهل لحظة وصوله الى باريس أن نظام بلاده قد تغير في الليلة الفائتة . وعلى بعد آلاف الكيلومترات من هنا ، في الجانب الآخر من الأورال ، على حدود سيبيريا ، كان رجل آخر يجهل

ما حدث . كان ، في البرد والصقيع ، ينشر الخشب ويصور زوجته وأولاده : إنه آخر سليل لآل رومانوف ، نيقولا الثـاني ، المنفي في طوبولسك . فمنذ شهر آذار كانت السلالة التي سادت على روسيا ثلاثة قرون متتالية قد باتت لا تملك سوى بستان لا تزيد مساحته على بضعة دونمات ، مسور بالحواجز لتحجب عنه آفاق الامبراطورية . وقد استبدلت الألقاب الماجدة السالفة ببطاقات هوية عادية لمواطنين عاديين . والأسرة المخلوعة مفصولة عن العالم ، وحتى كنيسة طوبولسك كان يجب ان تكون خاوية قفراء عندما يأتي اليها الامبراطور واهله ليصلّوا من اجل خلاص أرواحهم وخلاص روسيا .

في ذلك اليوم ، ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ ، كان نيقولا الثاني يعطي ، كما هي عادته صباح كل يوم ، درساً لابنه ، القيصر الصغير الكسيس . كان يحدثه عن روسيا التي كانت ، في اللحظة عينها ، تكتب في التمرد المسلح فصلاً جديداً في تاريخ الشعوب . ففيما وراء حواجز البستان الصغير كان مئة وخمسون مليون انسان يقفزون في المجهول ، طوعاً أو كرهاً ، قفزة لم يعرفها العالم قط من قبل لإعادة بناء بلد جديد على مساحة تمتد اثنين وعشرين مليون كيلومتر مربع من سهوب الامبراطورية القديمة .

بتروغراد ، العاصمة ، فريسة الحمى . فقد شرع البلاشفة منذ بضع ساعات في الاستيلاء على السلطة لتسليمها الى الشعب . ولكن مصير المعركة ما يزال غير مؤكد . وفي فجر ٧ تشرين الثاني كان المتمردون يستردون أنفاسهم استعداداً للنصر النهائي .

الحافلات تجري مكتظة بالركاب . المخازن مفتوحة ، البضائع نادرة . ولكن في كل مكان يتآخى جنود وبحارة مع مدنيين خرجوا من المصانع شاهرين البنادق : الحرس الأحمر .

في قصر الشتاء ، احد مخلفات العهد الملكي الباذخ ، تقبع حكومـة

كيرنسكي المؤقتة صامدة ، رافضة الاستسلام . وتحت نوافذه انتشرت قوات موالية ، مستعدة للموت . ومن الجبهة كانت تُنتظر قوات أخرى . عند مفارق الطرق أشعلت النيران لاتقاء البرد والرطوبة المخيمين على المدينة . المصفحات تقوم بأعمال الدورية ، من غير ان يعرف أحد هل هي موالية للسلطة المهددة او في خدمة الانقلاب المتقدم . باعة الصحف مطوقون . الجرائد تُقرأ وتعاد قراءتها ثم يعاد بيعها في السوق السوداء . وإبان الليل ألصقت على الجدران عشرات من البيانات المتناقضة . بتروغراد ما عادت تعرف لمن تسلم عصا الطاعة . السكان اعتادوا على الحركات غير المألوفة بعد ان هزتهم احداث ثورة آذار ثم احداث الثورة المضادة . وها هم يعيشون مطلع تشرين الثاني هذا وكلهم أمل في ان الثلج والصقيع سيطهران الجو عما قريب ، ويطردان الزكام ، ويجمدان الوحل . فبندقية الشمال بحاجة الى البرد ، وانها للحظة رائعة تلك التي تصبح فيها الزلاجات وسيلة التنقل الوحيدة في بتروغراد ، بينما يمد العمال على جليد نهر النيفا العريض سكك الحافلات التي تجرها الأحصنة ، حتى ترتبط الجزر السبع التي تغمرها عادة مياهه فيما بينها .

بتروغراد ؟ ان الهجوم يشن عليها اليوم من قلبها ، مع ان بطرس الأكبر ارادها حصينة منيعة . وقد شادها المهندسون بصورة يسهل معها قمع الفتن ، عند عكفة النهر الأخيرة ، في غور خليج فنلندا . فشوارعهـــا الفسيحة (الجادات) ، وضفاف النيفا الباذخة لا تقدم ملجأ للمتمردين ، كما لا تقدمه الأنهر والقنوات الستة والستون التي تمخرها . وجادة نفسكي ، التي يبلغ طولها خمسة كيلومترات وعرضهـــا خمسة وثلاثين متراً ، والمبلطة بالخشب ، هي المحور الذي يدور حوله كل شيء . ومن نهايتها الجنوبية يبدأ طريق موسكو بين العزبات المعزولة . وفي الشمال تتصل بالنيفا عبر الأحياء المترفة ، مركز السلطة والمصارف ، حيث تتجمع القصور الخاصة الباذخة . ومن جانبي هذا المحور بزغت أحياء فيبورغ وبوتيلوف العمالية

مثل فكي الكماشة لتطوق المدينة . وقد اقام القياصرة ، لاتقاء الثورات التي كانت تذرها تلوح في الأفق ، جسوراً متحركة بلغ عددها اربعمئة جسر . وعلى مرمى رشاشات قصر الشتاء ، على الضفة الأخرى من النيفا ، بنوا قلعة حصينة هي قلعة « بطرس وبولس » ، وترسانة ، وثكنة منيعة ، وضريحاً للأباطرة ، وسجناً وحشياً كان اول ضحاياه ابن بطرس الاكبر ، القيصر الكسيس ، الذي عـــذب حتى الموت . ولاستكمال تدابير الدفاع ، سدّت الاوتوقراطيـــة خليج فنلندا بتحويلها جزيرة كرونشتاد الى حصن منيع .

في فجر ٧ تشرين الثاني تدفقت امواج العمال من الضواحي نحو الشمال ، تحت وابل ناعم وبارد ، لتحاصر قلب المدينة . واذا بقلعة بطرس وبولس ، المنيعة من الخارج ، تسقط من الداخل . ومدافعها لن تطلق قنابلها الى ما وراء قصر الشتاء على الشعب . وفي النيفا ، رست ليلاً المدرعة « اورورا » راسمة ظلاً قاتماً .

على بعد سبعة وعشرين كيلو متراً ، في عرض البحر ، ادارت كرونشتاد ، المجهزة لاتقاء الأخطار الخارجية ، فوهات مدافعها ١٨٠ درجة نحو بتروغراد ، ضد تلك السلطة التي ما عاد البحارة يريدون ان يطيعوها .

في المدينة كان الهدوء مخيماً كما لو ان العاصمة الثائرة ما تزال تتردد في إكمال هجومها . وقد اعتاد المارة منذ شهر آذار على النزوات الشعبية .

جنود انضموا الى صفوف الثورة ، بورجوازيون يتدثرون بمعاطف من الفرو ، مدنيون مدججون بالسلاح ، ربات بيوت واقفات أرتالاً امام المخابز : انه ليس بالمشهد الجديد . أفلا تعلن اللافتات في ساحة قازان ، في نقطة المركز : « هذا المساء ، سيغني شاليابين « دون كارلوس » ، اوبرا فردي ، في بيت الشعب » ؟

(٣)

ساحة قازان ، مهد الماركسية الروسية . ففي اكثر من ذاكرة واحدة تختلط صورة هذا الشعب المسلح في ٧ تشرين الثاني ١٩١٧ بصورة تقادم عليها الزمن واحداً واربعين عاماً . ولم تكن الساحة آنذاك سوى فسحة عارية ، بلا حديقة ، مبيضة بالثلج . وكانت الحركة الثوريـــة « الأرض والحرية » قد اختارت يوم ٦ كانون الأول ١٨٧٦ لترفع العلم الأحمر الأول في أحياء سان — بيترسبورغ البورجوازية . وكان طالب شاب له من العمر تسعة عشر عاماً ، متدرب على حمل السلاح ومعجون بمؤلفات الفلاسفة الالمان ، جورج فالنتينوفيتش بليخانوف ، قد ترك مدينة طامبوف ، مسقط رأسه ، وأسرته النبيلة ، ليأتي مبشراً كيفما اتفق بالكلمة الثورية الطيبة .

وها هوذا يخطب في حفنة من العمال المتلفحين بمعاطفهم :

— إن الرأسمال المتمركز في عدد قليل من الأيدي لن يستطيع ان يقاوم هجوم الشغيلة المتجمعين والمنظمين .

لكن ادارة الشرطة الثالثة ، الاوكرانر الرهيبة ، ساهرة وعلى استعداد للتدخل بكل الصرامة التي أنشأها عليها مؤسسها ، القيصر نيقولا الاول (نيقولا — الهراوة) ، بعد تمرد الكانونيين[1] .

وقد اوقفت فصيلة فرسان العامل بوتابوف ، احد زعماء الحركة ، الذي سينفى فيما بعد الى سيبيريا حيث ينتظره الموت . كما اقتيد طالب في

---

(١) حركة أسسها ضباط نبلاء تشربوا افكار الموسوعيين الفرنسيين بعد الحرب ضد نابليون الاول . وقد تجمهروا في ساحة مجلس الشيوخ في سان — بيترسبورغ ومعهم ثلاثة آلاف من الجنود الذين لقنوهم افكارهم ، ورفضوا في ٢٦ كانون الاول ١٨٢٥ ان يؤدوا القسم لنيقولا الأول . وقد تم قمع التمرد بوحشية بالغة اثناء معركة دامية ، بالرغم من العون الذي قدمـه العمال الذين كانوا يبنون كاتدرائية القديس اسحق والذين ألقوا بالحطب المشتعل عـلى القوات الموالية .

الثامنة عشرة ، بوغو ليوبوف ، الى قلعة بطرس وبولس ، بينما نجحت امرأة في الرابعة والعشرين ، فيرا نيقولا يفنا فغنر ، ابنة حارس غابات في قازان مغرم بغار يبالدي ، وزوجة قاضي تحقيق مطلقة ومشهورة في كلية الطب بذكائها وجمالها الخارق ، نجحت في الافلات والهرب . ويدين بليخانوف بإفلاته من رجال الشرطة الى برودة اعصاب احد العمال الذي ألبسه قبعته . ولكن اسمه بات من الآن فصاعداً مشهوراً . وصحيح ان بليخانوف الطريد ليس سوى متآمر جديد آخر في إضبارات الاوكرانا ، ولكنه بات في نظر الشعب وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة أبا الماركسية الروسية . وقد أعارت الانتلجانسيا ، ابنة بوشكين ، الوليدة عن بورجوازية ليست أهلاً بعد للديمقراطية ، اهتمامها نظريات النظام الجديد . وقد اكتشفت العناصر الشابة من طبقة المثقفين هذه ، من خلال الثقافة ، الآفاق الاجتماعية التي يخفيها سور الاوتوقراطية الروسية الوسيطي . والشرطة تخشاها اكثر مما تخشى البروليتاريا .

في « بطرس وبولس » ، الزنزانات تعج بالمعتقلين السياسيين الذين ينتظر ١٣٩ منهم ان يحاكموا منذ اربع سنين . وقد اقتيد بوغو ليوبوف الى زنزانة إفرادية ضيقة مظلمة . وفي طريقه اليها التقى بالجنرال فيدرو فيبدو روفيتش تريبوف ، قائد شرطة بيترسبورغ ، الذي كان في جولة تفتيش على القلعة . وقد أمر تريبوف السجين :

— ارفع قبعتك عن رأسك .

ولكن الطالب رفض جهاراً تنفيذ الأمر ، بل اصلح على العكس من وضع قبعته على رأسه . فضربه تريبوف وجلده بالسوط مئة جلدة مخالفاً بذلك القوانين الحديثة التي تحظر العقوبات الجسدية . وقد أثار مسلكه هذا استنكار المعتقلين السياسيين والثوريين الطليقين .

وارادت امرأة في التاسعة والعشرين من العمر ، شاحبة الوجه ، صقيلة

الشعر ، فيرا ايفانوفا زاسوليتش ، ابنة فلاحين ميسورين من منطقة سمولينسك، سبق لها ان اقامت سنتين في المعتقلات الامبراطورية ، أرادت ان تثأر لبوغو ليوبوف . وفي ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٨ مثلت في مكتب الجنرال تريبوف متزملة ببرنس ذي شراشر ، متنكرة تحت اسم كوزلوفا ، حاملة عريضة توسل . وما كادت تلج المكتب حتى أخرجت من جيبها مسدساً وجرحت قائد الشرطة . ثم ألقت بالمسدس وتركت رجاله يقيدونها بلا مقاومة . ولم يكن جرح تريبوف مميتاً . ولكن الرصاصة التي نفذت الى الخاصرة اليسرى لن تخرج منها ، وهذا ما سيجعل الهازلين يقولون : « حذار ، ان تريبوف سيطلق النار ! » .

وذاع نبأ محاولة الاغتيال في السجون بمثل لمع البرق . والمعتقلون يعرفون ان المذنبة هي الشجاعة فيرا زاسوليتش التي كانت قد نجحت قبل ايام في دخول السجن والكشف عن خطتها ، مستخدمة بطاقة الصليب الأحمر . وقد تبنت منظمة « الارض والحرية » خطة الاغتيال لحسابها ، مضيفة الى قائمة أبطالها الطويلة بطلة جديدة .

وافتتحت محاكمة الـ١٩٣ ، وهي محاكمة شبان ، في ايلول ١٨٧٨ . وكانت النساء بينهم كثيرات . وكانت عميدتهن كاترين بريشكو — بريشكوفسكايا العاملة في الدعاية في كييف والمحبوسة منذ خمسة اعوام . والى جانبها لفتت الانظار صبية من أسرة عريقة ، عليها سيماء الطالبة ، ناعمة الوجه تحت شعر اصهب : صوفي بيروفسكايا ، اربعة وعشرون عاماً ، صغيرة مثل قطعة من الذهب ولكنها ثمينة مثلها . انها ابنة حاكم بيترسبورغ العام بالذات وابنة أخت وزير التعليم العام . وقد قادتها وحشية والدها الى الشعب ، شأن الكثيرات من الجامعيات اللواتي لم يتوانين عن عقد زيجات وهمية لينعتقن من الوصاية العائلية . وقد وجدت هذه الشبيبة ، المحرومة من الصحافة والاجتماعات الحرة ، رومانسيتها في المنشور السري والقنبلة . وطال أمد محاكمة الـ١٩٣ . وافتتحت محاكمة فيرا زاسوليتش بسرعة اكبر في قاعة

مجاورة لقصر ليتوفسكي ، وتتبعتها بيترسبورغ بحماسة . وكانت المحكمة تغص بجمهور مناصر للمذنبة عندما حدثت المفاجأة المسرحية : فقد حصل الدفاع ، الذي حاكم بمهارة الضحية تريبوف ، على إخلاء سبيلها . واستشاط الحاكم غيظاً من استقلال القضاة . وحاول عدد من رجال الدرك توقيف فيرا زاسوليتش عند خروجها من القاعة ، لكن كانت في انتظارها عربة قادتها الى مكان أمين . وقد سمع المتهمون في الدعوى الكبيرة الهتافات تتعالى حول القصر . وأصبحت فيرا معبودة كل من يتألم في روسيا ، ولكن لم تعد امامها سوى وسيلة واحدة لتبقى طليقة : الهرب الى البلدان الاجنبية . وهكذا رحلت الى سويسرا .

ان النجاح الذي احرزته « الارض والحرية » جعل افواج المنتمين الجدد تنهال عليها . وارادت لجنتها المركزية الحصينة المنيعة ان تدعم شهرتها بالاستمرار في عمل إرهابي عنيف . وبعد خمسة ايام من إخلاء سبيل فيرا ، انهال طلبة جامعة كييف على عميدها ضرباً . وبعد اقل من اسبوع اغتيل مفوض الشرطة في المدينة نفسها طعناً بالخنجر . وفي ٢١ شباط ١٨٧٩ جاء دور الأمير كروبوتكين ، ابن عم الفوضوي المشهور ، ليسقط صريعاً تحت ضربات « الارض والحرية » . وفي بيترسبورغ سقط الجنرال ميزنستسيف قائد الدرك ، صريعاً برصاص إرهابي ولى الأدبار على ظهر حصان . وفي ٧ آذار ١٨٧٩ اغتيل قائد الدرك في اوديسا برصاص غدارة . وفي ٢٣ آذار اطلقت النار على الجنرال درينتلين ، خلف الجنرال ميزنستسيف . ومن البلطيق الى البحر الأسود تساقط الحكام ورجال الشرطة والدرك صرعى كالذباب . وكان رد العدالة بمستوى الهجمة : فقد شنق سبعة عشر ثورياً في مدى بضعة أشهر . وحلت « الارض والحرية » محل الحركة « الشعبية » الواسعة التي كانت قد حاولت ان تؤلب الفلاحين على الحكومة القيصرية . وكانت الاوكرانا قد نجحت في تفكيك شبكات اولئك المثقفين الشباب الذين كانوا يرتدون زي الفلاحين ليذهبوا الى الشعب ويحرضوه على التمرد .